

# مصر تحمى الاسلام والمدنية

## في عين جالوت

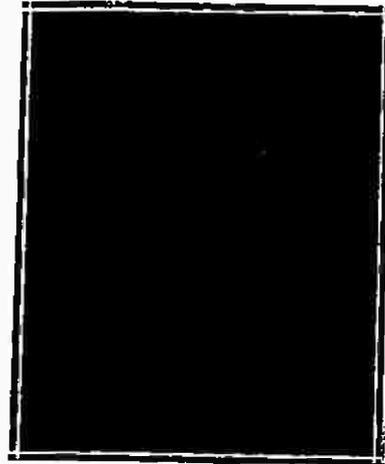
### للاستاذ محمد فريد أبو حديد

تجتمع لهم كفة وينبسط لهم سلطان على من في فيافي التركستان  
وما يليها من الكرج والديلم ، ثم تحصى تلك الدولة الناشئة بمد  
حين كأن لم تكن ، ويسدل عليها التاريخ سياتراً كثيفاً ، وتحجب  
ذكراها وراء الكتيبان المترامية البعيدة

غير أن مجرى التاريخ في هذه المرة قد اتجه اتجاهاً لا يزال  
ماثلاً في أذهان الانسانية ؛ وما زالت اصداً اجتماع التار على  
زعامة جنكيز تتردد الى اليوم في الأقطار جميعها شرقها وغربها ؛  
وما زالت آثار ذلك المهد تنب فوق أطلال بخارى وسمرقند ومرو ،  
بل ما زالت جائمة فوق بغداد العظيمة يشهد العالم منها الى اليوم  
كيف يقوض التخريب أسس المدينة التليدة ، وكيف تذهب  
كنوز القرون ومخلفات الاجيال على يد الهمجية بين عشية وضحاها .  
وما اتخذ التاريخ ذلك المجرى الا لسبب واحد ، قد يبدو صغيراً  
ضئيلاً لا خطر له . غير أن أجل حوادث التاريخ طالما نبعت  
من أمثال هذا السبب الصغير

كان الجزء الشرقى من العالم الاسلامي يئن من حكم طائفة من  
الأمرء قد وثبوا الى الحكم وهم أشبه شيء بقطاع الطرق يشنون  
على غنيمة آمنة في قفلة عزلاء، غريبة . وانك اذا تدبرت الأمر  
كله في تاريخ الاسلام لم تجد نكبة أصابت المسلمين الا كانت آتية  
من مثل هؤلاء الأمرء الفسدين . تراهم وقد حكموا البلاد لكي  
يتروا ثروتها لا لكي يقوموا بواجب الحكم فيها ، وتراهم  
يطشون بالناس بطش الأسد بالصيد لا بماقون أحداً لأنه أساء ،  
بل لأنه تنفس بكلمة حق ، أو فرج عن نفسه بأنة مصدور .  
وتراهم قد أحطوا أنفسهم بشرادم من جنود مرتزقة ، لاهم لها  
الا أن تشترك في الغنيمة ، فهي تساعد الطغيان على أن يطغى ،  
وتتشرك معه بأن تستعلى في الأرض وتطغى ، وهؤلاء الملوك  
وأولئك الجنود لاحد لاستعلائهم مادامت مسألة الحكم مقصورة  
على ضبط الرعية العزلاء ؛ فاذا ما جد الجد ، واحتاج الأمر الى  
الحماة كانوا أحرص الناس على الحياة ، وأخوفهم من التعرض  
لبلاء الجهاد ومحنة الجلال

ولقد كان محمد شاه خوارزم أحد هؤلاء الطغاة المستكينين  
الضعفاء . فلقد كان أشد الناس بطشاً وأحدم شوكة في سيرته



استهل القرن السابع  
المجربى ( وذلك في أوائل  
القرن الثالث عشر  
الميلادى ) وقد رأى الى  
القاهرة نبأ النضال  
الدموى الذى تار في  
الشرق فيما بين نهري  
سيحون وجيحون بين  
جنود انتار وبين جنود

الملك محمد خوارزم شاه ؛ وكان المسلمون الى ذلك المهد لا يعرفون  
للتار دولة ذات خطر ، فانهم انما كانوا يعرفون قوم آمن البدو يعيشون  
في فيافي الشرق التي تمتد الى اكناف الصين طالما حاربهم  
جيوش المسلمين فلم يجدوا في بلادهم مطمناً ، اذ كان هؤلاء الحفاة  
كلما أوقع بهم جند الاسلام وقعة لا ذوا بكبد الصحراء يضربون  
فيها ويمعدون فلا يجد قواد المسلمين لهم مدناً ولا ريفاً ، ولا  
يستطيعون أن يقبضوا منهم على ناصية . فاذا القرن السابع المجربى  
يحمل معه اجتماعاً عجيباً لهؤلاء التار لم يسبق له مثيل الا في أحوال  
نادرة ، اذ قد نبغ من بينهم الزعيم الداهية ( تيموجين ) الذى يعرفه  
التاريخ باسم ( جنكيزخان ) ، فوحد لهم دولة وأقام لهم ملكاً بعد  
احداث يطول بنا وصفها لو تعرضنا لذكرها . وما كان لهذا الحدث  
أن يكون له ذلك الأثر البالغ في تاريخ الاسلام والمدينة لولما  
لابسه من ظروف العصر وما كانت عليه حال الدولة الاسلامية  
الناخبة للتار . فلو كانت الدولة الاسلامية في عصمة هارون أو  
المأمون ، أو لو كانت في قيادة المتصم أو التوكل ، لما زاد الأمر  
على قيام دولة تترية تلعب حيناً كما يلعب الشهاب ثم يندثر ، فكانت

مع الأفراد والضعفاء ، وكان من أحرص الأمراء على الثروة والسلطان ما دام لا يمايل إلا لشعبه المكين ، فقد سلط عليه طوائف أعوانه فكسروا أنوفه ، وخضدوا شوكرته ، وأذلوا نفوسه ؟ وقد أراد القضاء أن يتعدى أذاه إلى طائفة من تجار التتار كانوا قد جاءوا إلى بلاده مسالين في تجارة فأوقع بهم ونهب متاعهم ، فاستجار هؤلاء ، بصاحبهم ، وكان عند ذلك ( جنكيز ) . فرأى من واجبه أن ينصرهم ، فبدأ من ذلك الاصطدام الذي أعقب الدمار والبلاء ببلاد المسلمين

لم يشهد التاريخ مثل ذلك الصراع الذي بدأ عند ذلك بين التتار والمسلمين . فتيار أتى من جموع الهمج يصدم هيكل الدولة القديمة المجلدة ، فإذا بذلك الهيكل يتصدع عند اللس وينهار بعد قليل . حتى أن التتار أنفسهم ترددوا حيناً ووقفوا مبهوتين لا يكادون يصدقون أنهم قد هدموا ذلك الهيكل الهائل ، ولكن الهيكل لم يكن سوى جدار أجوف قد نخره الظلم واستل منه الحياة

لم يثبت الأمراء الطغاة إلا مقدار لظمة قصيرة المدة ثم عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يربحوا عدوهم كما كانوا يربحون رعييتهم ، ولن يقدر على تحطيمه كما كانوا يحطمون أهل بلادهم ، ومنذ تحققوا ذلك طارت نفوسهم خوفاً ، وغلب الحرص كل غرائزهم فقلبوا الفكر في مصيرهم ، وعرضوا ما كان منهم وما يكون . أذهب عنهم أموالهم ، ويضيع سلطانهم ، ويضطرون إلى مقاساة الأهوال في الدفاع والنضال ؟ أبقاؤون اليوم رعييتهم ضيق الحياة وضنك العيش في القتال ؟ أيزلون عن السعة والعزة والذمة في سبيل دفاع المسميت ؟ أيعدون أيديهم إلى الرعية أن هلمى إلى صف واحد نبذل فيه الحياة معاً فتحيا كراماً أو نموت وقد أعذرنا ؟ ثم جالت بخيالهم ذكريات ما سبق لهم أن أجروا ، وما كان لهم في الحكم من سيئات ، وعادوا إلى أنفسهم يسائلونها : أيستطيعون اليوم أن يقفوا مع الرعية كتفا إلى كتف ؟ وهل يجدون من أنفسهم الجرأة على أن يخاطبوا خطاب الأنداد الأكفاء ؟ أيستطيعون أن يستنصروها لبذل المال والنفس في سبيل الخلاص من العدو الخيف ؟ وهل يستطيعون أن يخيفوا الناس من عدوهم

المقبل وقد كانوا بالأمس لا يجدون الجنود إلا لكي يحكموهم بالقر والصف ؟ جالت هذه الأفكار في رؤوسهم وهم مترددون بين التبات والانزهاج ، وبين النضال والحرب فخذتهم قلوبهم إذ رأوا أن الرعية التي آذوها بالأمس لن تجيب نداءهم لو نادوا ، ولن تخلص لهم اليوم بعد ما نالها من شرهم وطفانيهم ؟ ولئن أجابت الرعية وتناست كل ما كان ، أبقيت فيها بقية للنضال ؟ إن ظلم القرون إذا أفلح في إزالة القلوب الحرة الأديبة التي تنفر من الظلم ، وتأبى الاستعباد ، فقد أفلح كذلك في إماتة الرجولة والنخوة ، وأحال الناس إلى أشباح مرتعدة خواراة لا تستطيع شيئاً في الدفاع ولا تغني غناء في النضال . فلن يستطيع شعب أذهب الطفياز إياه وعصف بنخوته أن يصمد في نضال البقاء في الحياة

ولم يستطيع محمد شاه خوارزم عند ذلك إلا أن يعمد للهروب بما استطاع استخلاصه من أمواله وذخائره التي استلبها من دماء رعاياه وأبترها من عرق كدم ، ودموع أعينهم ، ورجفة العراة منهم والجانحين ، وبقى الناس بعد أن هرب ذلك الطاغى وهم كالنعم البعثرة إذا دهمتها الذئاب ، وقد هرب عنها الرعاة الجبناء . فلنسدل الستار عن نضال غير متبادل بين الشاة والذئب ، ولنمض العين عن منظر شعب من شيوخ أهل علم ، وشبان أهل تجارة ، وكهول أهل صناعة ، ومن عمال فقراء لا يملكون ما يسدون به الرمي وزراع لا دراية لهم بشيء بعد المحراث والنفاس ، وهم يخرجون ألوفاً إلى خارج المدن والقرى ، لا يدرون كيف يفعلون ، ولا أتى يتجهون ، فلا تكون الا ساعات حتى يحصدهم العدو حصداً ، أو يحصد بعضهم بعضاً في فزع حرب لاعهد لهم بها . لابل لإنهم كانوا يستسلمون كما يستسلم اللجاج ليذبح واحدة بعد واحدة ، وهي تستسلم للهلاك خوفاً من رهبة الدفاع عن أنفسها

لقد سلبهم الطغاة ما كان فيهم من رجولة بالمسف المتواصل جيلاً بعد جيل ، وبالخنوع والاذلال يتوارثونه ابناً عن أب عن جد . ألا فليحمل الطغاة وزر هذه الخازي ، ولتلتطخ ذكراهم بأنهم هذه المجازر لا براءة لأحد منهم منذ بدأ الحجاج جريمته في تذليل الأمة الإسلامية لحكم الطغيان . وترامت أبناء هذه المجازر إلى مصر فلم تجد من نفسها فراغاً إلى أن تملأ آذانها بها إذ كانت

في يوم من الأيام الاحكاما يقومون بخدمة الجماعة . ولم تزل مصر على توالي المحن عليها سيدة أمرها والسيطرة على قانونها وحقوقها . ولو كان الأمر عند ذلك أمر جيش وسلطان لانتهى النضال على ما انتهى اليه نضال ملوك الشرق وجيوشهم ؛ فنضال مصر مع التتار كان نضال أمة بأسرها محسنة بوجودها ، شاعرة بما يجب عليها أن تبذله وأن تدبره ؛ وان شئت مصداق ذلك فهو هذا وصف مجلس حربى اجتمع عند ذلك لينظر في أمر التتار والاستعداد لملاقمتهم

كان في ذلك المجلس ممثلو الشعب المصرى وأهل الرأى فيه من مشايخ العلماء وأئمة القانون . كما كان فيه كبار الامراء والحكام والأعيان . وكان سلطان الوقت شابا غرأ جاهلا وهو على بن معز الدين أيبك . فتذاكر المجلس غارة العدو وما تحتاج اليه البلاد من وسائل الدفاع من مال وجند ، وما لا بد من بذله من مجهود جامع شامل ، فكان أول ما نظروا فيه أن تساءلوا : هل السلطان للبلاد أم هو البلاد التى للسلطان ؟ وهل يليق بنا في مثل هذا الوقت أن نقيم شانا غرأ جاهلاً يتصرف في شؤون الدولة لا لشيء الا لأنه ابن للسلطان الذى حكم من قبل ؟ ولم تطل بهم المناقشة في ذلك فاختاروا رجلاً من أكبر قواد المصر فأقاموه سلطاناً بدل ذلك الصبي الضعيف ودلوا بذلك على أن نظر مصر انما هو لمصالح الدولة ، وانما انما تختار حكامها ليقوموا بواجبهم لها لا ليكونوا سادة متحكمين فيها . ثم نظروا بعد ذلك فيما يجب جمعه من المال للاستعداد للحرب ، فلنسمع الآن قول أحد مشايخ مصر وهو الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لنعلم منه كيف كان يخاطب نواب المصريين قادة الحرب في بلادهم ، وهل كانوا يرونهم سادة أم خداما : قام ذلك الشيخ الجليل عند ذلك فقال شيئاً مثل هذا : « لقد جثتم أيها القواد والأمرء من بلادكم جنوداً صفاراً لا تملكون شيئاً ، بل كنتم مملوكين أرقاء . ولقد صارت لكم أموال وعقارات ، وأصبحت في أيديكم النعم الجزيلة والخيول المطهمة ، والجواهر والخلي التى لا يستطيع تقدير قيمتها . فلهو فبذلوا كل ما عندكم من تلك الأموال حتى اذا ما صرتم كالناس لا تملكون الا ما يملكه أوساطهم ، كان الواجب على الأمة أن تبذل كل ما تملك في سبيل الجهاد من ورائكم . وليست العامة معمزل عن الحرب

ناضل نضال الأبطال في دفاع الصليبيين عن أرضها . اذ بينا كانت مذابح التتار تفتك بالمسلمين فيما بين نهري سيحون ورجحون ، كان الصليبيون يفتدون أوفاً مؤلفة الى شواطئ مصر يريدون أن يرموا بفتحها قلب دولة الاسلام . وكان بمصر بقية الدولة الأيوبية ، فكان ملوكها يردون من ذلك الفتح موجة بعد موجة ، فالملك الكامل يدفع حملة دمياط الأولى ، والملك الصالح يقف لجيش فرنسا وحلفائها ويموت وهو في ميدان الحرب فيخلفه ابنه الملك طوران شاه فيقضى على جيش لويس التاسع ، ويتم الفتح بأسر الملك الصليبي المتحمس . وهكذا علمت مصر دول أوروبا أنها لن تكون هينة في النضال اذا شاءوا نضالاً

ولما تنفست مصر من حملات الصليبيين راعها ما سمعت من دوى التخريب في مدن الشرق ، وكان قد علا وصار مرعباً قظيماً . وكان أعلى ذلك الدوى ما جاء من بغداد اذ فتح هولاء كرو عاصمة الخلافة وألحقها بالخراب الذى خلفه جده بين سيحون ورجحون ، وسمع من بمصر أن خزائن العلم وآثار المدينة في دار السلام قد صارت كلها أثرأ بعد عين ، وأن دولة الاسلام العظيمة قد تحطمت وانهارت كأنها لم تكن من قبل ملاذ الحضارة والفن والمزمنذ قرون . فاختلط في نفسها الحزن على مجد الاسلام الصائغ والخوف من أن ينالها من ذلك التيار المدمر ما نال سائر معاقل الاسلام

واندفع التيار المدمر بعد اجتياح بغداد فسار في سبيله الى القرب حتى بلغ الشام ، وكانت قلاعها عند ذلك عواصم الحدود للدولة المصرية الكبرى التى ورثت دولة بنى أيوب وهى دولة الأتراك المماليك

وكان صدى أنباء تلك الغارة في مصر غير صداها في سائر الأقطار ، فان صوت التتار الذى أفزع العالم الاسلامى فأخرجه عن رشده وأفقده ارادته وجعل أهله يستسلمون للموت لا يكادون يجركون يداً ، لم يزد على أنه أثار حفيظة أهل مصر ، وحلمهم على الاستعداد للنضال . وذلك أن مصر لم تكن كسائر البلاد الاسلامية فانها لم تفقد كرامتها ولا رجولتها . ولم تنس معنى العزة والاباء . حقاً لقد كان يحكمها أمرء من الترك ، وكان قبل ذلك يحكمها بنو أيوب والفاطميون وغيرهم ، ولكن هؤلاء لم يكونوا

أقبلت فهي فرسان مهاجمة ، وانتظم السلك فاذا الجيش سلسلة تطوق جوانب الوادي ، أعلاها نحاس براق وحديد صقيل ، وأسفلها حوافر الخيل المتوثبة تضرب الأرض وهي قلقة الى النضال ؛ ثم دقت الكؤوس ، وأمر القائد بالمهجوم ، فاذا بهذه السلسلة المستوية تنحدر الى الوادي صاحبة داوية راعدة ، ولكنها مع ذلك متماسكة مستوية حتى بلغت الجانب الآخر من الوادي ، وكانت جموع التار عنده تنتظر المهجوم لتجد عنده النصر الذي اعتادته في مصافحها ؛ واهتزت صفوف السلسلة المستوية عند الاصطدام كما تهتز الاسطوانة الطاحنة اذا صدمها حجر صلد ؛ غير أنها لم تقف وأبطأ سيرها وخفت جريتها ؛ ولكنها لم تشعب ولم ترتد وعلت قممها الحديد ، واختلطت فجة الأصوات ، وارتجى البعض عن البعض ، وتدرجت الأجزاء عن الأجزاء

وكانت ساعة تشيب لهاها الولدان ؛ ثم ازدادت سرعة السلسلة كأنها قد اجتاحت العقبة التي عاقت سبيلها ؛ واندفع جيش مصر مرة أخرى وراء فلول منهزمة من التار تجري فزعة في غير نظام نحو بيسان في أسفل الوادي

فلقد حطمت الجيوش المصرية جموع التار الخيفة لأول مرة في تاريخها منذ خرجت على العالم تديقه العذاب والوبال ؛ وكانت وقفة مصر في عين جالوت حامية للاسلام والمدنية والانسانية محمد فريد أبو مبريد

ولا هي مترددة في خوض غماره . فهلماوا ! اسألوا سهول فارسكور عن الألوف من أهل الريف الذين حاربوا الفرنج ، وأبلوا في حربهم أحسن البلاء . وهلموا فنادوا أن النفير عام تجددوا الناس جميعا عند ندائكم مسارعين الى الجهاد والنضال »

ولقد انفض ذلك المجلس على اتفاق وثيق ، فخلع السلطان على ونودي بالسلطان الجديد : الملك المظفر قطز ، ونودي على الناس جميعا أن النفير عام الى الفزو في سبيل الله

وهكذا كانت الحركة حركة مصر ، والجهاد جهادها لا جهاد أمرائها

وخرج السلطان بموكبه في أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وستائة ، وبلغ الشام في رمضان ونزل على جانب الأردن في أواخر شهر الصيام

وكان الى جانب وهدة الأردن واد من الوديان الكثيرة التي تهب من جبال فلسطين أو تلالها ، تخرج فيه عين من مرتفع لا يزيد علوه على مائتي متر وتسمى عين جالوت ، وذلك الوادي على مقربة من بيسان التي اشتهرت بانها النجيب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني . وقد اجتمع جند مصر عند ذلك الوادي ، آتيا من علايات فلسطين . وكان جند التار قد توافوا في وهدته آتيا من دمشق بعد أن جروا عليها ذيل تخريبهم وتدميرهم وجال التار في السهل وهم يتصاحكون ويمرحون ، ينظرون

الى جنود مصر بلباسهم الزاهي ، وسلاحهم الثمين ، وحليتهم الرائعة ، ولعلمهم كانوا اذذاك يقول بعضهم لبعض : ها هي ذى غنيمة لم يسبق لنا عهد بمثلا ، ولا عجب فهي كنوز مصر واجتمع جند مصر من أترك وعرب ، وبرزوا على عادتهم صفوفا من الفرسان لا تكاد ترى فيها ميلا ولا عوجا ، كل فارس منهم على فرسه كالجيل الراسي اذا تحرك ، فكأنما ارادة واحدة تتحرك ، فالفرسان اذا تحركت فهي خيل مقبلة ، والخيل اذا

**طبعات** مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع الملائك

جولة في ربوع

أفريقيا	٨
أوروبا	٨
آسيا	٨
الشرق الاذن	٨
الامريكيتين	٨

ظهرت الطبعة الثانية تأليف الاستاذ محمد ثابت